الـــدمـــاغ... هـــذا الـــذي يـجعـلنـا نفكر

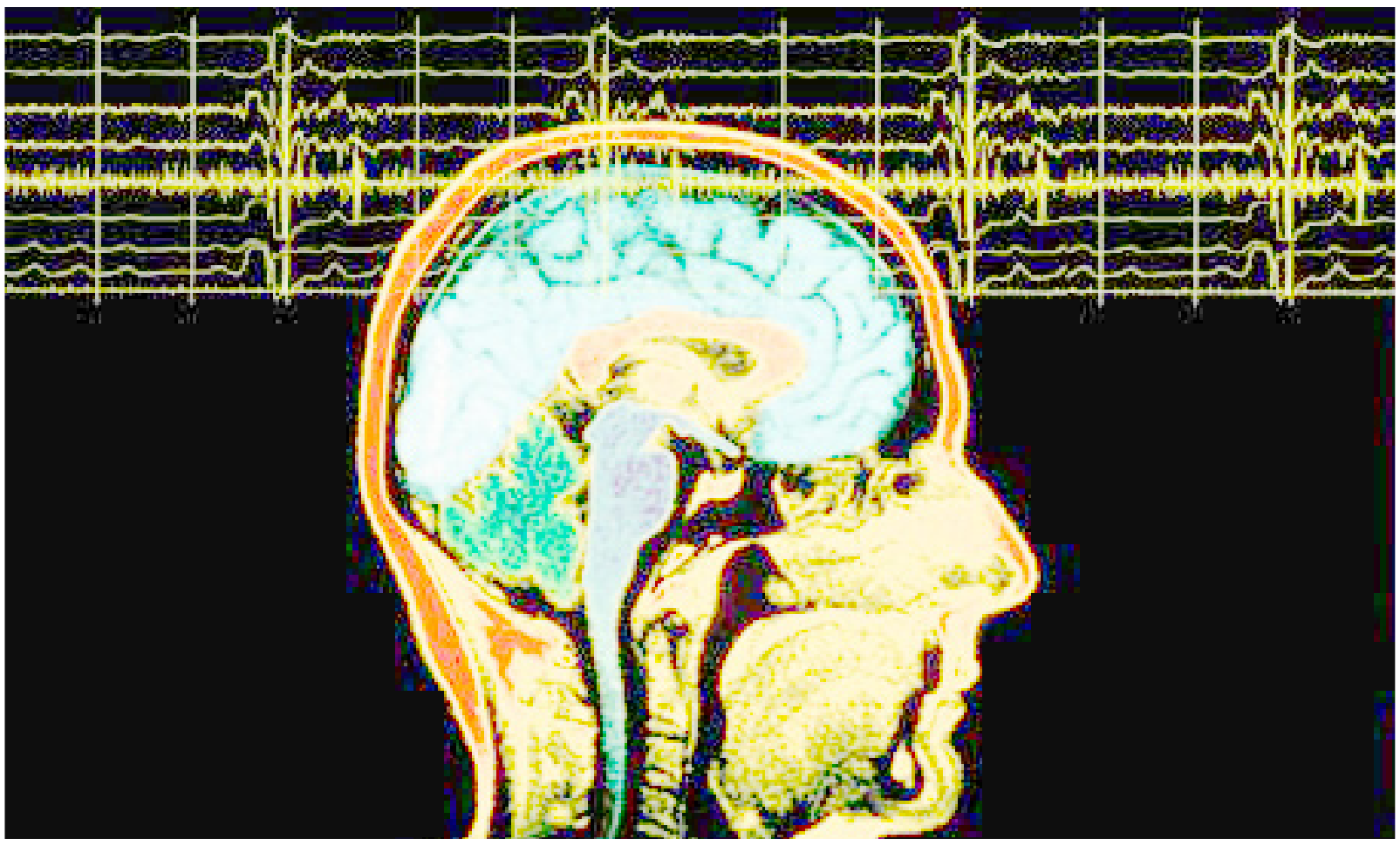

هل نحن محكومون بعمليات اللاوعي؟ علم الأعصاب يعتقد ذلك – لكن أليس حالة الإنسان أكثر تعقيدا من ذلك؟ اثنان من الخبراء يقدمان رأيين مختلفين هما ديفيد ايغلمان، عالم الأعصاب في كلية طب بايلر في تكساس، و ريموند تاليس، الأستاذ السابق في طب الشيخوخة في جامعة مانشستر .

□ترجمة: عبد الخالق علي .....

من المؤكد أننا مرتبطون بالمادة الغريبة الموجودة داخل جماجمنا و التي تزن ٣ أرطال. الدماغ هو شيء غريب تماما عنا لكن مع ذلك فان شخصياتنا و آمالنا و مخاوفنا و طموحاتنا تعتمد كلها على سلامة هذا النسيج البيولوجي. كيف نعرف ذلك؟ الجواب هو أن شخصيتنا و قراراتنا و هربنا من المخاطر و قدرتنا على رؤية الألوان او تسمية الحيوانات كلها تتغير مع تغير الدماغ لأسباب مثل الأورام و الصدمات و تناول المخدرات و الأمراض. الوجودان العقلي و الجسدي غير منفصلين عن بعض كما نعتقد ، و هذا يوضح بعض جوانب وجودنا و في نفس الوقت يزيد من غموض جوانب اخرى . خذ مثلا، عمليات اللاوعي الالية التي تجري تحت مظلة الوعي الإدراكي. لقد اكتشفنا أن اغلب أنشطة الدماغ تحدث عند المستوى السفلي: الوعي – الذي يومض بالحياة عندما نستيقظ صباحا – هو مجرد جزء صغير جدا من العمليات. هذا الفهم يعطينا فهما أفضل عن التعددية المعقدة التي تتكوّن منها الشخصية. الشخص ليس كيانا واحدا لعقل واحد، وإنما الكائن البشري مبني من عدة أجزاء كلها تتنافس على ادارة الدفة . نتيجة لذلك يكون الانسان دقيقا، معقدا و متناقضا. نحن نتصرف بأساليب يصعب أحيانا اكتشافها بالفحص البسيط. لمعرفة أنفسنا فإننا نحتاج الى دراسات متأنية عن الركيزة العصبية التي نتكون منها. يقول الأستاذ تاليس بان كل ما فينا من أحاسيس و غيرها يتطلب دماغا له نظام فعال، لكن الدماغ هو ليس كل ما فينا و ليس صحيحا ان افضل الطرق لفهم أنفسنا هي النظر إلى الركيزة العصبية التي نتكون منها. السبب في ذلك أننا لسنا مجرد أدمغة فقط وإنما نحن جزء من مجتمع من العقول، عالم بشري بعيد عما يمكن ملاحظته في الأدمغة حتى لو كان هذا المجتمع ناشئاً عن الأدمغة. هذا عمل ترليونات الأدمغة على مدى مئات آلاف السنين. إن محاولة فهم مجتمع العقول عن طريق تصوير النسيج العصبي تشبه محاولة سماع همس الغابات بوضع السماعة على جوزة البلوط . من الطبيعي أن نشاط الدماغ هو نشاط آلي يجري تحت مظلة الوعي الإدراكي إلا أن هذا لا يعني أن واحدنا إنسان آلي أو أننا لا نعي أسباب قيامنا بالأشياء. إن الوعي هو جزء صغير في الدماغ لدرجة أن قراراتنا الشخصية المهمة – مثل اختيار الزوج أو مكان السكن – تديرها آلية الدماغ التي لا ندركها.

أما ايغلمان فيقول إن استخدامات علم الأعصاب تعتمد على السؤال المطروح. التحقيق بشأن الحروب يتطلب فحصا لما يتم استشفافه بين العقول وليس فقط في داخلها. في الواقع ان الأدمغة و الثقافة تعمل معا في انشوطة تغذية استرجاعية، كل منها تؤثر على الأخرى . مع ذلك فالثقافة تترك بصمتها في دورة دماغ الفرد. إذا تفحصت جوزة البلوط لوحدها فإنها تخبرك بكل ما يحيط بها – من رطوبة الميكروبات الى أحوال أشعة الشمس في الغابة –. بالتناظر فان دماغ الفرد يعكس ثقافته. آراؤنا عن الطبيعة و العادات و قواعد اللبس و الخرافات المحلية يتم امتصاصها داخل الدورة العصبية من الغابة الاجتماعية المحيطة بنا . من المفاجئ أن المرء يمكن أن يلمح ثقافة ما عن طريق الدماغ، فالآراء المعنوية تجاه البقر و الخنازير يمكن قراءتها من ردود الفعل النفسية للأدمغة في ثقافات مختلفة .

وراء الثقافة هناك أسئلة مثمرة يجب طرحها عن تجربة الفرد، فتجربتك كإنسان – من الأفكار حتى السلوك الى الأمراض الى الأحاسيس – يمكن ان ندرسها في دماغك لكي نفهم كيف نرى العالم و لماذا نجادل انفسنا و كيف نقع ضحية للوعي الادراكي و سيل بيانات اللاوعي للمعلومات التي تؤثر في آرائنا . إن فهم حد الوعي لا يمكن تحقيقه ببساطة من خلال الحدس و إنما يتكشف من خلال الدراسة . هذا الحد لا يجعلنا بدلاء للإنسان الآلي، لكنه يقدم فهما اكبر لمنبع أفكارنا و حدسنا و معتقداتنا. أحيانا تكون هذه الدوافع جزءا لا يتجزأ من الوراثة و في أحيان اخرى تتشكل ثقافيا، لكن في كل الحالات تنتهي مكتوبة في نسيج الدماغ .

يرد تاليس عن ذلك بالقول إن بعض ما ذكره ايغلمان يبدو شيئا فطريا و تراجعا عن الأطروحة الأساسية. لقد وضع ايغلمان آلية الدماغ الخاصة باللاوعي في المقدمة و يدّعي بان القرارات المهمة في الحياة تتأثر كثيرا بالآلية الخفية للاوعي. لقد ذكر ايغلمان بان اختيار شريك الحياة و مكان السكن تؤطرها أنانية ضمنية مبنية في الدماغ، و على هذا إذا كان اسمك يبدأ بحرف الدال فمن المحتمل ان تتزوج شخصا يبدأ اسمه بهذا الحرف و تعيش في مدينة تبدأ بنفس الحرف و تبحث عن وظيفة تبدأ بذات الحرف. اعتقد أن الإحصائيات متذبذبة، فهناك عدد كبير من المحامين و أطباء الأسنان تبدأ أسماؤهم بحرف الدال . الآن يتراجع ايغلمان عن موقفه السابق و يوحي بان الدماغ هو لاعب واحد و ليس مجموعة من اللاعبين . الثقافة لها نفس هذه الأهمية، فعندما تتواجد الثقافة فسيكون لعلم الدماغ دور أكثر اعتدالا في تفسير أسباب قيامنا بالأشياء و دور اقل في تأطير النهج الاجتماعي . إن رأينا المعنوي بأي شيء يعتمد على اشياء نعيها و أشياء لا نعيها . حتى لو اعترف ايغلمان بان الوعي هو المخطط على المدى البعيد، فلا يمكنه التخلي عن فكرة كون اللاوعي هو المسؤول، و السبب في ذلك هو أن ايغلمان يريد أن يمنح حصانة لعلم الدماغ . نحن لم ننته بعد من تناقضات الذات، فهلا نتحدث عن الأوهام؟

ربما يتفق ايغلمان على عدم وجود تناقض بين ان يكون اللاوعي في المقدمة و يتأثر ايضا من الداخل (الجينات) و من الخارج (المجتمع الاكبر). من الطبيعي ان الثقافة مهمة و ينبغي ان لا يهدف علم الإحياء العصبي الى فصل التمويل عن البحث الاجتماعي. إن اهتمامي هو فهم التجربة الفردية للإنسان مثل – الأوهام الإدراكية، من أين جاءت أفكارنا، كيف لنا ان نحرك ذراعنا دون إحساس من جهازنا العضلي، كيف نميز بسهولة وجه صديق أفضل من برامج الحاسوب، لماذا نتجادل مع أنفسنا، لماذا يصعب كتم السر . الأوهام البصرية تكشف أن الإدراك الذي يولده الدماغ لا يرتبط بالحقيقة كشرط أساسي، و نفس هذه النقطة توضحها الهلوسات و الأحلام و الأوهام . بل أن الأمر أعمق من ذلك، فنحن لا نعرف جيدا ماهية الحقيقة، لأننا نكشف جزءا صغيرا جدا منها . كل كائن حي يعتقد أن العينة التي لديه هي الحقيقة بكاملها. و حتى يتعلم الطفل أن نحل العسل يستمتع بالإشارات فوق البنفسجية و أن الأفعى المجلجلة ترى الأشعة تحت الحمراء، فمن الواضح أن نصل بشكل طبيعي إلى الكثير من المعلومات. في الحقيقة أن جزء الطيف الالكترومغناطيسي الذي نراه لا يشكل إلا اقل من عشر ترليونات جزء من الطيف كله. إن جهاز الإحساس لدينا يكفينا للمرور في نظامنا البيئي.

إن مفهوم العينة يوحي بفكرة المعرفة المحدودة والمعلومات التي لا يمكن الحصول عليها و الاحتمالات التي لا يمكن تصورها. اعتقد أن هذه النقطة بداية جيدة لحدسنا عن تجربتنا الخاصة.

يرد تاليس قائلا انه لو كان اللاوعي و ردود فعله في المقدمة فعلا فلا فرق بين المقدمة و غيرها من المواقع. بالنتيجة فإن موقعك يكون إما بديهة (نحن ننخدع احيانا بشأن طبيعة الحقيقة و سبب قيامنا بالأشياء) أو مناقضا لنفسك (نحن ننخدع عادة او دائما بشأن طبيعة الحقيقة و سبب قيامنا بالأشياء) . نعم، هناك أوهام و أحلام و تخيلات و هلوسة ، لكننا لا نستطيع تمييز ماهيتها ما لم تكن أغلبية تجربتنا ليست أوهاما او أحلاما او تخيلات أو هلوسة. إن ادعاء ايغلمان بأننا منغلقون عن اغلب الحقيقة هو بحد ذاته تناقضا مع النفس. لأن إدراكنا يتوسط الدماغ المتطور، فإن حياتنا العقلية قد بنيت لتراوح في مكان معين، لذا فإننا محصورون في جزء صغير من الحقيقة. لو كان ذلك هو كل ما في الأمر فكيف نعرفه ؟ ستكون لنا معرفة بسيطة بحدود وعينا كما تفعل الحيوانات . المعرفة تتجاوز التجربة الفورية و تصحح بعض حدسنا عن أنفسنا ، لكن هذه المعرفة هي جزء كبير من حياتنا العقلية الواعية، و بدونها لا يمكننا القيام بالأشياء .

يجيب ايغلمان على ذلك بالقول انه ليس من التناقض أن نكون منغلقين عن اغلب الحقيقة، وإننا يمكننا اكتشاف المزيد عنها من خلال عملية تجريبية متأنية، وهذا هو مسعى العلم . مثلا، لا يمكنك أن ترى أو تسمع أو تمس الموجات اللاسلكية، لكن يمكنك بناء أجهزة لترجمة وتحويل الموجات إلى لغة محددة بيولوجيا يمكنك من خلالها فهم تلك الموجات. يمكنك بناء مثل هذه الأجهزة فقط لأن العلم يتجاوز معرفتنا لاكتشاف مجالات جديدة.

علم الأعصاب يكشف وجهة نظر عما يحدث تحت رادار وعينا الإدراكي، إلا أنها تجعل حياتك جاهلة لا حول لها ولا قوة كما هي الآن. لو قرأت كتابا طبيا عن القلب لتتعلم كيف يضخ قلبك، فهل تشعر بأنك اقل حيوية وأكثر ميكانيكية؟ انا لا اشعر كذلك. إن فهم تفاصيل عملياتنا البيولوجية لا يقلل من الرهبة و إنما يزيدها. الأدمغة – مثل الورود – تكون أكثر جمالا عندما تلقي نظرة الى الآليات المعقدة الواسعة الغريبة التي تكمن وراءها .

أليدا وذكريات مع والدها شي غيفارا

□ ترجمة ابتسام عبد الله

تمتلك أليدا غيفارا عينيّ والدها، ونظرة أصبحت رمزاً في القرن العشرين، وهي ايضاً لها نفس مشاعره تجاه الظلم الاجتماعي، وكانت د.أليدا تشارك (والدها) مع العالم. وفي الوقت الذي لا تضايقها الملصقات والأعلام والصور واللوحات والبلوزات التي تحمل صوره، فإنها وبقية العائلة مستائين من الاستخدام غير اللائق لصورة والدها الشهيرة، والتي التقطها المصور ألبرتو كوردا عام ١٩٦٠، وتلك الصورة بالذات قد أصبحت الأكثر طباعة في العالم.

أليدا مع والدها غيفار وكاسترو

((الأمر ليس بسيطاً بالنسبة إلينا))، كما تقول أليدا، مضيفة: "نحن لا نريد احتكار الصورة أو الحصول على المال عبرها، ولكن الأمر يبدو صعباً عند استغلالها في مناسبات غير ملائمة، من الأفضل استخدامها في حالات التعبير عن مقاومة الاضطهاد". وتضيف: "إن هذه الصورة الشهيرة قد استخدمت على مايوه بكيني، ولم نستطع منع ذلك الأمر ولكن أن يوضع شي (الممتنع دائما عن المسكرات) على قنينة (فودكا)، فهذا شيء آخر، استدعى منا الدخول في معركة مع تلك الشركة وبمساعدة من المتضامنين مع كوبا في إنكلترا".

وفي هذا الشهر ستمر الذكرى الـ ٤٥ على قتل إرنستو (شي غيفارا) المقاتل، الذي ساعد في قيادة الثورة الكوبية وأصبح أيقونة أو رمزاً للثوار، وتمر في هذا العام الذكرى الـ ٥٠ للمقاطعة الاقتصادية التي أعلنتها الولايات المتحدة الأميركية على كوبا، والتي مازالت تؤثر على اقتصادها، والحرب الباردة ما تزال متواصلة. وتنفق أميركا الملايين في الدعاية المضادة (إذاعة وتلفزيون) لكوبا، والكوبيون ما يزالون حتى اليوم المهاجرين الوحيدين الذين تمنح لهم الجنسية الأميركية (آلياً) حال وصولهم إلى أميركا.

إن كوبا الدولة النامية تمنح التعليم والعلاج الصحي لكافة مواطنيها، وهي ايضاً تعتقل الصحفيين الذين يقفون ضد النظام، وعلى الرغم من عملية إطلاق سراح جماعية جرت عام ٢٠١١، فان السلطات الكوبية لا تتسامح مع أي نقد حول سياسة الحكومة، خارج أطر الآلية الرسمية التي تأسست تحت سيطرة السلطة.

و د.أليدا غيفارا، كانت في السابعة من عمرها عندما قتل (شي) في قرية صغيرة (بوليفيا)، من قبل مجموعة من الجنود البوليفيين وعدد من المتنفذين في الـ CIA.

وذكريات أليدا عن والدها، تبدو لها كظلال باهتة، وقد تعرفت عليه أكثر عبر قراءة مذكراته وذكريات آخرين عنه، ومن بينهم الرجل الذي تدعوه (عمي) فيديل كاسترو.

وتقول: "لقد أخبرها عن قصص جميلة حول والدها، ولكنني لا أسأله الكثير وهو ما يزال يمتلك عواطف جياشة نحوه، ومن الأمثلة. إن خط والدي كان فظيعاً، لا يمكن قراءته بسهولة، ولذلك طلب من والدتي كتابة مذكراته بخطها، وعندما جاء راؤول كاسترو لتسلّم المخطوطة علمت والدتي أن راؤول وفيدل لهما مذكرات ايضاً، ولذلك قالت: "إن كانت هناك أحداث لا تتفق مع مذكراتكما، فعليكما الاحتكام إلى ما كتبه شي، لأنه غير موجود للنقاش معكما".

وقد غضب راؤول كثيراً وأجابها قائلاً: "عندما نكون أنا وفيديل احياء، فان شي حيٌّ ايضاً، انه دائماً معنا). وقد بكيا آنذاك.

وتقول د.أليدا: "إن لم يكن شي قد مات في بوليفيا، فانه كان سيموت في الأرجنتين من أجل تغيير كل شيء هناك، ولربما ان قارة أميركا الجنوبية كانت ستكون مختلفة اليوم، وكانت والدتي تقول ذلك دائماً.

كان شي غيفارا طالباً في كلية الطب في الأرجنتين، وعندما قام بجولة على (الدراجة البخارية) حول اميركا الجنوبية، تأثر بفقر الناس، وكان ذلك في عام ١٩٥٢، واهتم بعدئذٍ بالسياسة، نظرياً ثم عملياً بالسلاح، منضماً إلى الثورة التي أطاحت بالديكتاتور باتيستا ونظامه.

وفي أعقاب تلك الثورة ونجاحها، هاجر الأغنياء والطبقة الوسطى من كوبا إلى فلوريدا ومدينة ميامي بالذات، وحدث صدع إثر ذلك ما بين الأغنياء والفقراء، وتلوم، أليدا، أميركا، مثل والدها، أميركا لذلك. وتضيف: "إن الازمة الاقتصادية شديدة جداً في اميركا اللاتينية اليوم. إنه ليس بسبب النفط، ولكن الولايات المتحدة الأميركية تريد المياه أيضاً. إن البرازيل، تبيد كافة الغابات، بحثاً عن الحديد، والمكسيك تحفر الأرض، وتحوله الى مقلب للنفايات، إنهم يدمرون الأرض في هذه المرة).

إن النقاد يقولون أن الرجل الشاب (الفوتوجينيك) –الذي تصلح ملامحه للتصوير– والذي كان يرتدي ملابس المعركة كان يكتب الشعر، ملقياً الظلال على قسوة الثورة، ولم يظهر غيفارا أي لوم حول القتل. "لقد كانت الثورة"، تقول ابنته ذلك وتضيف، "بالتأكيد كان من الأفضل عدم سفح الدماء، ولكن ذلك كان من طبيعة الثورة، ان الثورة الحقيقية تتطلب الأخذ بقوة ما يراد. وقد علم والدي انه بانضمامه إليها، يجازف بحياته".

"إن والدتي تقول لي باستمرار، إن أحب والدي كما كان، رجل كان عليه أن يفعل ما فعل".

"لقد مات دفاعاً عن مبادئه، وحتى اللحظة الأخيرة كان منتمياً للمبادئ التي آمن بها، وهذا ما يثير إعجابي بشخصيته".

وتقول ايضاً: "عندما كنت في السادسة من عمري كتب لي رسالة، نصحني فيها أن أكون فتاة طيبة وأساعد والدتي في أعمال المنزل". وغضبت لذلك، لأنه كتب رسالة إلى أخي يقول، انه سيأخذه إلى القمر، أما أخي الآخر فكانت رسالته تتضمن، "إننا سنذهب ونقاتل الامبريالية معاً"، أنا أيضاً كنت أريد الذهاب إلى القمر ومحاربة الامبريالية ايضاً.

واليدا هي الابنة الكبرى لأربعة أبناء لشي غيفارا، من زوجته الثانية، وعن طفولتها تقول:

"لم نحظ بامتياز أن نكبر كأطفال لشي، كان زملائي لا يعرف من أنا، حتى تحدثتُ للمرة الأولى عبر تلفزيون كوبا، عام ١٩٩٦. ومن المهم أن لا نبقى صامتين، لأنه فيه ظلم لنا".

عن الغارديان

فان دام وعودة إلى النجومية

□ترجمة/ المدى

أين هو جان كلود فان دام؟ انه يكاد يختفي عن الشاشة. فان دام الممثل البلجيكي الذي غزا الشاشة السينمائية في الثمانينيات من العقد الماضي ثم توارى عنها بشكل مفاجئ في التسعينيات إثر خلاف مع هوليوود فأحرق كل جسوره مع عاصمة السينما.

فان دام عاد مؤخراً إلى السينما وقد شارك مؤخراً في فيلم، (قابل للاستهلاك ٢) ، وهو على شاكلة أفلام، (المنتقمون) التي ظهرت في أواخر القرن الماضي ومثلها نجوم سينما (الحركة)، ويمثل فان دام الشخصية الشريرة الرئيسة فيه، وذلك للمرة الأولى في دور كبير منذ عقد من الزمن. عندما برز فان دام نجماً في عام ١٩٨٨ عبر فيلمه (لعبة الدم)، كان في السابعة والعشرين من عمره، نجم أفلام (الحركة) يمتلك عضلات بارزة، ومهارات الكاراتيه، كان متحمساً للعمل، ميالاً لإرضاء الجميع، يتحدث متدفقاً في الكلام عبر برامج اللقاءات في التلفزيون، مزوداً الصحفيين من أولئك الباحثين عن الأخبار المثيرة بالكثير منها.

ولكن النجاح الكبير الذي حققه، حوّل ذلك الحماس الى عجرفة، وفي أواخر التسعينيات كان قد تزوج خمس مرات، وأدمن الكوكايين الذي سيطر عليه تماماً.

أما اليوم، وقد تقدم في السن وأصبح متواضعاً، فإن فان دام، أصبح شخصاً لطيفاً يجذب الصحفيين للحديث معه.

وهو يدين بالشكر الجزيل لسلفستر ستالون، نجمه المفضل في شبابه، لاختياره لإداء دور في فيلم (لعبة الدم)، والذي كان قد رفض المشاركة في جزئه الأول والذي أنتج عام ٢٠١٠.

ويتحدث فان دام عن فيلمه الجديد قائلاً: "إن الفيلم لا يتضمن معارك بالأسلحة، بل القتال بالأيدي – وتلك المشاهد تجمعه بستالون، قتال وجهاً لوجه، سيثير إعجاب أولئك الشباب الذين يهوون مباريات الملاكمة التي كانت تجرى بين محمد علي ضد فريزر".

سافر فان دام إلى أميركا للمرة الأولى في عام ١٩٨١، ليصبح بعدئذ نجماً، بعد نجاحه في مباريات الكاراتيه وكمال الأجسام، كان يعرف القليل من الانكليزي (فهو بلجيكي المولد)، ولم تكن السنوات الأولى سهلة في أميركا، حتى تعرف على عدد من العاملين في السينما، وأصبح بعدئذ بطلاً لفيلم (لعبة الدم) الذي حقق نجاحاً كبيراً، محققاً له النجومية في هوليوود، وتبع ذلك، مجموعة من الأفلام، قليلة الميزانية، قبل أن يحقق نجاحاً كبيراً في ادوار أكبر في أفلام: الجندي العالمي، الهدف الصعب،.. وقد حصل على مبلغ ٧ ملايين دولار، إثر تحويل فيلمه، (مقاتل الشوارع) إلى لعبة فيديو، عام ١٩٩٤.

وشهد ذلك العام ايضاً، أكبر نجاح حققه فيلم لفان دام، وكان بعنوان (شرطي وقتي)، والذي سجل ربحاً قدره ١٠٠ مليون دولار في أميركا وحدها، ولقد أصبح بعد ذلك نجماً حقيقياً، وعند ذلك أيضا بدأت الأشياء تتداعى، فعندما طلبته شركة يونيفيرسال لتوقيع عقد ثلاثة أفلام بأجر ١٢ مليوناً لكل واحد منها، رفض طالباً أجراً قدره ٢٠ مليونا أسوة بجيم كيري.

ويدافع عن نفسه قائلاً: "كنت اعمل كثيراً آنذاك، وكل ما كنت المسه يتحول إلى مال، كانوا (أعني الشركات) يدفعون لجيم كيري ثروة عن فيلم واحد، أردت أن ارفض نظام شركات الإنتاج، كنت غبيا، ولذلك وضعوني في قائمة الذين لا يتم التعاون معهم".

وتغيرت حياته.. أدمن الكوكايين والملاهي الليلية، يتشاجر مع المصورين ويلقى القبض عليه مراراً في حالات اصطدام سيارته وهو سكيّر، وبدأت أفلامه تهبط وتهبط.

وبعد ان أمضى ١٣ سنة ضائعاً، يؤدي أدواراً في أفلام (فيديو) أو أفلام هونك كونك، حتى انتبه إلى نفسه، خجلاً مما فعل في تلك المرحلة من حياته.

ويقول اليوم: "إني أحاول أن أكون ممثلاً أفضل، أريد تمثيل افلام من اخراج تووني ورايدلي سكوت، سكوريسس وغيرهم من الكبار"، وهو متفائل بفيلمه الجديد ويعتبره (نعمة) بالنسبة إليه، إذ فتح أمامه أبواب هوليوود مجدداً، ليعود نجماً لامعاً من جديد.

عن الغارديان